إنّ التألم والشكاية من الضعف والهزال . وهجوم الكبر . واشتمال الرأس بالشيب . والجزع من الحياة . ولوم الدهر يردُ بكثرة في مقدمات القصائد كما نلاحظ مثلاً عند مروان أبي حفصة . وابي الشيص . والحسين بن مطير . وابن مناذر . والعكوك . ومنصور النمري(١) . ومن جميل ماجاء في هذا اللون قولُ أشجع السلمي . وهو يصف آلامه التي أضحت ترافقه بعد أن ذهب ماءُ شبابه . وخارت قواه واعتلى الشيبُ مفرقه . في مطلعْ قصيدة يمدح بها الفضل بن الربيع(٢)

غلبَ الرُقادُ على جفونِ المُسعدِ وغرقْتُ في سَهَرٍ وليل سَرْمَدِ
قد جدَّ بي سهرٌ فلم أرقد له والنومُ يلعبُ في جفون الرُقَّدِ
ولطالما سَهرتْ بحبِّي أعين أقذي الشهاد لها ولما أسْهَدِ
أيام أرعى في رياض بطالةٍ وردْ الصبا منها الذي لم يورد
لهوٌ يساعدُهُ الشّبابُ ولم أجدْ بعد الشُبيبةِ في الهوى مِن مُسْعِدِ
ماالدهرُ إلاّ الناشئانِ تَوالِيا يومٌ يروحُ لنا ويومٌ يغتدي
فالأمسُ ليس براجع لكَ عهدُهُ واليومُ ليس بمدركٍ مافي الغدِ

ومن المقدمات التي استهوت عدداً من الشعراء العباسيين . وصف الطبيعة وما فيها من مباهج سواء كانت صامتة أم متحركة . ويكاد أبو تمام الطائي يكون من المبرزين الاوائل فيه . من ذلك قوله في وصف الربيع في مقدمة قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم(٣)

ياصاحبي تَقصّيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تُصَوّرُ
تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهرُ الرُبى فكانما هو مقمرُ
دُنيا معاشٍ للورى حتى إذا جُلي الربيعُ فانما هي منظرُ
أضحتْ تصوغُ بطونُها لظهورها نَوْراً تكادُ له القلوبُ تنوّرُ

بهذا الأسلوب الرائع الممتع يسترسل الشاعر في وصف الربيع . ويُقدّمُ لوحة جميلة للطبيعة الزاهية الضاحكة التي تملأ القلوب بهجةً ومسرةً . ويزاوج بين هذا البهاء والصفاء والعطاء للطبيعة وبين كرم الخليفة وجوده .

نستشف من الشواهد السابقة أن الأسلوب في القصيدة المدحية أصبح يتراوح بين الجزالة والسهولة، والقوة والليونة. يضاف الى ذلك أن الأوزان أصبحت طويلها وقصيرها - قوالب لهذا الفن » مع ان قصائد المديح بالذات كان أساسها في العصر الجاهلي والإسلامي أيضاً الجزالة والفخامة وقوة أسر الألفاظ وطول البحر الشعري. ليتلاءم مع جزالة الألفاظ وفخامة التعبير. حتى إننا لو نظرنا في قصائد المديح قبل القرن الثاني لوجدنا غالبيتها في بحري الطويل والبسيط لانهما يحققان الغاية المبتغاة من شعر المديح »(١)

ومما يلاحظ في موضوع المديح في العصر العباسي المبالغة المفرطة التي تصل أحياناً الى حدّ مُستهجن. مثل قول الحسين بن مُطير الأسديّ. فقد رفع المهدي فيه عن البشر، وكاد ينزله بمنزلة الخالق. فهو أطهر الناس. وأولاهم بالتقديس وأوسعهم كرماً. بل مِن نوره تتغيّرُ الألوان. ومِن تلألؤ وجهه يتألّقُ وجهُ الأرض ومن يده تدبُّ الحياةُ في الأعواد اليابسة :(٦٠)

لو يُعبدُ الناسُ يامهديُّ أفضلَهم ... ماكان في الناس إلاّ أنت معبودُ
أضحتْ يمينك من جودٍ مصوَّرَةً ... لابل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ
لو أنَّ مِن نوره مثقالَ خردلةٍ ... في السود طرّاً إذنْ لابيضّت السّودُ
مِن حسنِ وجهك تضحي الأرضُ مشرقةً ... ومِن بنانِك يجري الماءُ في العُود(٦١)

ومن المبالغة أيضاً قول أبي نواس في هارون الرشيد :(٦٢)

وأخفتَ أهل الشركِ حتى إنّه ... لتخافُكَ النطفُ التي لم تُخْلَقِ

وقوله :(٦٣)

كيف لايُدنيك مِنْ أملٍ ... مَنْ رسولُ اللهِ مِنْ نَفَرِهْ

وقد علّق المبردُ على هذا البيت بقوله (٦٣) « وهو لعمري كلامٌ مستهجنٌ موضوع في غير موضعه . لأنّ حقّ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ يُضافَ إليه ولا يضاف الى غيره »(٦٤) وثمة ألوانٌ جديدةٌ في المديح . استحسن الشعراء النظم فيها . منها مدح المدن . وبيان محاسنها . وتعداد فضائلها ومآثرها . وما فيها من ساحات وأبنية وجوامع ورُبى وأنهار وبساتين ... وقد حظيتْ الكوفةُ وبغدادُ والبصرةُ بكثيرٍ من هذا الشعر . ولاسيما بغداد ، لأنها أمّ الدنيا . وموطنُ المُلكِ . ومحطُ الأنظارِ . ومأوى الشعراء والأدباء . ولا عجبَ اذا قال عمارة بن عقيل في مدحها :(٦٥)

أعاينتَ في طولٍ من الأرضِ والعَرْضِ ... كبغداد داراً إنّها جَنّةُ الارض
صفا العيشُ في بغداذ واخضرّ عودُهُ ... وعيشُ سواها غيرُ صافٍ ولا غَضِّ

وشاع بين العباد والزهاد والمتصوفة مديحُ الله سبحانه وتعالى . مستغنين به عن مدح العباد(٦٦) . فإنهم وجدوه خير ناصر لهم ومعين على حوادث الدهر وصروفه . وانه يغنيهم من الوقوف على أبواب الخلفاء . واراقة ماء الوجه على موائد الأغنياء . مثل قول عبدالخالق بن عبدالواحد الانصاري :(٦٧)

امتدحتُ الغنيَّ عن مدحِ النا ... سِ بصدقِ المديحِ والإحكام
بكلام أشاد إعظامة النا ... سَ وقالوا : قُلْ ياصدوقَ الكلام
فرجوتُ النجاةَ من كبوة النا ... رِ وفوزاً بالدارِ دارِ المقام
ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي فأفرط ... تُ وأنتَ الغفورُ للظُّلّام
فاعفُ عنّي يامالكَ العفوِ واغفرْ ... لي ركوبي هَوْلَ الذُّنوبِ العظام
كَذَبَ العاذلونَ باللهِ . ما للّـ ... ـهِ نِدٌ ومالَهُ مِن مُسام

أمّا المديح النبوي في هذا العصر فكان نادراً جداً . وقد وقفتُ على قصيدة طويلة للامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠ هـ) مطلعها :(٦٨)

النقائض احترافاً . وأصبحت القبائل « تحتشدُ في المِرْبَد وفي الكُناسة حول الشعراء يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء . وكأنهم وجدوا في ذلك لهواً لهم وتسلية » .(٣١) وقلّ الإقبال عليها . أي النقائض . في العصر العباسي الأول . وأصبحت مقتصرةً على شعراء قلائل مثل ابن ميّادة . والحكم الخُضْري . وعبدالرحمن بن جُهيم الأسدي .(٣٢)

إنّ حجم الهجاء في العصر العباسي الأول كبير . وقد تنوعتْ موضوعاته . واختلفتْ اتجاهاته . والكثير منه كان شخصياً يدفعه الحقْد والغضبُ والحسدُ والانتقامُ . من ذلك مثلاً أنّ بشار بن بُرد هجا العباس بن محمد بن العباس . والي الجزيرة لأخيه المنصور ، لأنه بخُلَ عليه ولم يُسعفه بالمال .(٣٤)

ظِلُّ اليسارِ على العباسِ ممدودُ وقلبُه أبداً بالبخلِ معقودُ
إنّ الكريمَ ليخفي عنكَ عسرتَهُ حتى تراهُ غنياً وهو مجهودُ
وللبخيلِ على أموالِهِ عِلَلٌ زرقُ العيونِ عليها أوجه سودُ
إذا تكرهتَ أنْ تعطي القليلَ ولم تقدرْ على سعةٍ لم يظهر الجودُ
بثَّ النوالَ ولا تمنعك قلتُه فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

فهو لم يكتفِ بتعنيفه على الشحّ وحجب المال عن المقبلين عليه . بل ينصحه بإعانه الفقراء والمحتاجين وإن كانت الإعانة قليلة . فهي تكسبه حمداً وشكراً .

ويلاحظ أحياناً في الهجاء الشخصي روح الاستخفاف والتهوين والتحقير . فالقارىء لشعر حمّاد عجرد في بشار بن برد يلمس ذلك ، يقول مثلاً :(٣٥)

وأعمى يشبهُ القِرْدْ إذا ما عمي القِرْدْ
دنيءٌ لم يَرُحْ يوماً إلى مجدٍ ولم يَغْدُ
ولم يحضرْ مع الحُضّا رِ في خيرٍ ولم يَبْدُ
ولم يُخشَ له ذمٌ ولم يُرْجَ له حمدُ
هو الكلبُ إذا ما ما تَ لم يوجدْ له فقدُ

ياسيدَ السّياداتِ جئتُك قاصداً أرجو رِضاك واحتمي بحماكا

ذكر فيها سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وصفاته ومعجزاته . ويبدو واضحاً ان المتأخرين قد تأثروا بها . خاصّةً الإمام البوصيري الذي اشتهر بنظم المدائح النبوية في القرن السابع للهجرة .

وتجدر الإشارة إلى ان شعر المديح حوى حكماً وأمثالاً كثيرة . أطلقها الشعراء ترسيخاً لأقوالهم وتوطيداً لتعليلاتهم . وقد اشتهر بها أبو تمام . وبلغت القمة عند أبي الطيب المتنبي مِن بعدُ . من ذلك قول أبي تمام من قصيدة مدح بها أحمد بن أبي دؤاد :(٦٩)

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقال في قصيدة مدح بها خالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيباني :

وليس يُجلّي الكرْبَ رُمحٌ مُسَدَّدٌ إذا هو لم يُؤْنَسْ برأيِ مُسَدِّدِ

الهجاء :

الهجاءُ فنّ أدبي قديم رافق المديح منذ عصر ما قبل الإسلام . وكان أول أمره يدور على التعيير بوضاعة النسبِ والبخلِ . والفقر . والقعود عن الغزو . والتقصيرِ في حماية الجار . والعجز عن أخذ الثأر . والانهزام في الحرب . والاستسلام للأعداء . واستساغةِ الظلم (٧٠). ولما أطلّ الإسلام وأشرقَ نورُه على الناس قبّحَ الهجاء . وعدّهُ إثماً . فقد رُوي عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : « من قال في الإسلام هجاءً مقذعاً فلسانه هَدَرٌ » .(٧١) ولذلك فَتَرَ هذا الفنّ في عصر صدر الإسلام . ولكنه نما وزاد شررُه في العصر الأموي . وأخذ يتناول المثالب والمعايب . واحترفه شعراء

ونلاحظ ابن أبي الزوائد يهجو زوجته لأنه ملّها وأبغضها .(٨١) ونرى مطيع بن إياس هاجياً أباه . متهكماً به . ومحتقراً له .(٨٢) ونجد بشاراً بن برد يهجو يعقوب بن داود وزير المهدي متهماً إياه بالغرور والكبر .(٨٣) ويجتريءُ على الخليفة نفسه .

ولا يتورّعُ عن هجائه بأقذع الألفاظ وأشنع السباب متهماً له بالفجور والغفلة(٨٤) . وكان أبو نعامة محمد بن الدقيقي خبيث اللسان . استفرغ شعره في الهجاء . وله قصيدة مزدوجة باسم « السنيّة » ذكر فيها جميع رؤساء الدولة في أيام المتوكل من أهل سُرّ منْ رأى وبغداد ورماهم بالقبائح .(٨٥) وقد أخفى عدد من الشعراء الذين هجوا الخلَفاء أسماءهم خشية العقاب والبطش. ومثال على ذلك الأبيات الآتية التي تظمها أحد الشعراء المجهولين في هجاء الأمين ، لأنه بايع لابنه الصغير موسى .(٨٦)

أضاع الخلافة غشُ الوزيرِ ... وفسْقُ الإمام وجهلُ المشيرِ
ففضلٌ وزيرٌ . وبكرٌ مشيرٌ ... يريدان ما فيه حتفُ الأميرِ
وما ذاكَ إلا طريقٌ غرورٌ ... وشرُّ المسالكِ طُرْقُ الغرورِ
وأعجبُ من ذا وذا أننا ... نبايعُ للطفل فينا الصغيرِ

إن سهولة الألفاظ وبساطة التعبير والميل إلى الشعبية يغلب على فن الهجاء في هذا العصر . إضافة إلى انه انماز بمقطوعات أو قصائد ليست طويلة منظومة في بحور قصيرة أو مجزوءة .

وكان للنشاط الشعوبي في العصر العباسي الأول دورٌ كبيرٌ في بروز نوع من الهجاء عند عدد من الشعراء . تعصّبُوا على العرب . وتطاولُوا عليهم . وتغنوا بمجدهم الساساني . وكان على رأسهم الشاعر الأعمى بشار بن برد بن يرجوخ الذي تنكّرَ لنعمة العرب وغضّ من شأنهم وحطّ من قدرهم بأسلوب ساخر حتى عُدّ أخطر شاعرٍ

فلما سمع بشار هذا الشعر بكى . فقال له قائل . أتبكي من هجاء حمّاد ؟ فقال : واللهِ ما أبكي من هجائه . ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه . فيصفني ولا أصفه .

إنّ روحَ السخرية المريرة المتأتية من الكراهية المقيتة . والحسد . وهو داء قاتل كما يقال تؤذي كثيراً . وتؤدي إلى عواقب وخيمة . ولعل أصدق مثالٍ على ذلك قصيدة أبان اللاحقي في هجاء جار له اسمه محمد بن خالد بن عمار الثقفي تَزوج من فتاة اسمها عمّارة بنت عبدالرحمن الثقفي طمعاً . وكانت كثيرة المال . قال :

لما رأيـــتُ الـــبزَّ والـــشّارَهْ	والفَرْشَ قد ضاقت به الحارَهْ
والــلَوزَ والــسكّرَ يُرمى بـــه	مِن فوقِ ذي الدار وذي الدارَهْ
وأحضروا الملهين لم يتركوا	طـــبلاً ولا صاحـــبَ زُمارَهْ
قــلــتُ ، لماذا ؟ قِــيــلَ ، أعــجوبةٌ	مـــحـــمدٌ زُوِّجَ عـــمّارَهْ
لا عـــمّرَ اللهُ بـــهـــا بـــيـــتَـــهُ	ولا رأتـــه مُـــدركـــاً ثـــارَهْ

وثمة أبيات يحرض فيها على التخلي عنه والنجاة منه بالهرب . وقد أفلح ـ كما يبدو ـ بهذه الفتنة . يقول الصولي : فلما سمعتْ عمّارةُ هذه بشعره هربتْ » .(٣١)

وشبيه بهذا ـ وإنْ اختلفت صورة المرأة ـ ما جرى لحماد عجرد . فإن مطيع بن إياس هجاه بهذه الأبيات مُستنفراً خليلته « ظبية الوادي » على تركهِ :

ألا ياظـــبـــيـــةَ الوادي	وذاتَ الـــجـــيـــدِ الرادِ
وزيـــنَ الـــمـــصرِ والدّارِ	وزيـــنَ الـــحـــيِّ والـــنادِي
وذاتَ الـــمـــبـــسـم الـــعـــذْبِ	وذاتَ الـــمـــيـــسَـــمِ الـــبادي
أما باللهِ تـــســـتـــحـــيـــيـ	نَ مـــن خُـــلـــةِ حـــمّادِ
فـــحـــمادٌ فـــتـــىً لـــيـــس	بذي عِزٍّ فـــتـــنـــقـــادي
فـــتـــوبـــي واتـــقـــي الله	وبـــتّـــي حـــبْـــلَ جَرّادِ

أوقد نار الشعوبية . وهناك شعراء آخرون شاركوا في هذا الهجاء الخبيث . منهم أبو نواس . وأبان اللاحقي . وأبو عبدالرحمن الهيثم بن عدي . وعلى بن خليل . وابراهيم بن ممشاذ. وسنتحدث عن شعرهم في فقرة لاحقة .

الرثاء :

الرثاء فن أدبي يُعَبِّرُ عن الألم والتوجع والتأسف . وهو باصطلاح أهل اللغة بكاءُ الميت . وتعدادُ حسناته . وتمجيدُ صفاته ومناقبه بالشعر والنثر . وقد عُرِفَ الرثاءُ منذ عصر ما قبل الإسلام « إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى . كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبِّنين لهم مُثنين على خِصالهم . وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت . وان ذلك مصيرٌ محتوم » .(٨٧)

والرثاء من الموضوعات القريبة إلى النفس . وهو يُشكِّلُ ديواناً كبيراً في أدبنا العربي . وكان للشعراء العباسيين نصيبٌ وافرٌ فيه ؛ إذ نجدهم قد رثوا خلفاءهم وولاتهم ووزراءهم وقوادهم . ورثوا مدنهم التي نزلت بها الكوارث . ورثوا حيواناتهم المستأنسة . وطيورهم الصادحة . حتى رثى بعضهم شبابه ونفسه وعضواً ذهبَ من جسده ... إنهم جادوا بدموع غزيرة على كلِّ شيء عزيز عندهم وأثير لديهم بمقطوعاتٍ وقصائدَ مستقلّة قائمة بذاتها .

لقد حظي الخلفاء بقسطٍ من شعر الرثاء . وأول خليفة بكاه الشعراء هو أبو العباس السفّاح . وكان أبو دُلامة نديمه المحبوب ؛ لذلك كثر نحيبه عليه . وأبّنهُ بقصائد كثيرة . أثنى فيها على سياسته وأخلاقه وصفاته . وذكر خسارة الأمة برحيله . من ذلك قوله :(٨٨)

فيا قبرَ معْنٍ أنتَ أولُ حُفرةٍ من الأرضِ خُطَّتْ للمكارمِ مضجعا
وياقبرَ معْنٍ كيف واريتَ جودَهُ ؟ وقد كان منه البرُّ والبحرُ مُترعا
بلى قد وسعتَ الجودَ والجودُ مَيّتٌ ولو كان حياً ضقتَ حتى تَصدّعا

قال أبو هلال العسكري مُعلقاً على هذه القصيدة : « إنها أرثى ما قيل في الجاهلية والاسلام »(٩٣) . وقال ابن الأثير إنها « أعجبُ ما سمعتُ في هذا الباب »(٩٤) . ووصفها ابن خلكان بأنها « من المراثي النادرة »(٩٥) . ومن يُمعن النظر فيها لايجد شيئاً جديداً « يخرج عن سنن الشعراء العرب في الرثاء من الدعاء للميت وقبره بالسُقيا والعجب للحفرة التي ضمّت الميت وقد كان كالبحر جوداً والجبل حلماً وان الكرم مات بموته وانقطع الخير عن الناس بعد ذهابه » .(٩٦) وشارك مروان بن أبي حفصة في رثاء مَعْن بن زائدة . وتعدُّ قصيدته اللامية من القصائد الجيدة في باب الرثاء . إذ صوّر فيها حزنه عليه . وَوَجْدَ أهل العراقِ والشام ونجد به . فقد خسروا بموته البطولة والشجاعة والبأس والجود والتقوى والإخلاص للعرب والمسلمين . مطلعها :(٩٧)

مَضى لسبيلهِ مَعْنٌ وأبقى مكارمَ لنْ تبيدَ ولنْ تُنالا

ومنها :

وأظلمتِ العراقُ وأورثتْها مصيبتُه المجلّلةُ اختلالا
وظلُّ الشامُ يرجفُ جانباهُ لركنِ العزِّ حين وَهى فمالا
وكادتْ مِن تِهامةَ كلُّ أرضٍ ومن نجدٍ تزولُ غداةَ زالا
فما شَهِدَ الوقائعَ منكَ أمضى وأكرمُ محتِداً وأشدُّ بالاً
سيذكُرُكَ الخليفةُ غيرَ قالٍ إذا هو في الأمورِ بلا الرِّجالا

ولا ينسى وقائعكَ اللواتي على أعدائهِ جُعِلَتْ وبالاً
ومعتركاً شَهِدتَ بهِ حِفاظاً وقد كُرِهتْ فوارسهُ النِّزالا